١٦٥٣٧

النذير

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة سيدنا شعيب عليه السلام

٨

سلك سيدنا شعيب عليه السلام بقومه أولا نهاية التلطف فى النصيحة ، ورفق بهم غاية الرفق فى المحاورة واستنزالهم عما هم فيه ، ولكنهم لم يرعَوُوا بل ظلوا فى طغيانهم يعمهون ، فلما لم ينجع فيهم ذلك الرفق اتخذ الى هدايتهم ونجاتهم من عقاب المنتقم سبيلا آخر لعلهم يهتدون ، فوعظهم الموعظة الحسنة وأيقظهم الى أن عاقبة ما هم فيه هى عاقبة من سبقهم من الأمم ، وإذ ذاك يحال بينهم و بين مايشتهون (كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ) .

قام عليه السلام بكل هذا خير قيام ، ثم بيَّن لهم أنهم بعد ارتكابهم ما ارتكبوا من الكفر والخبائث ، لايزال عليه السلام راجيا لهم الهداية ، وأنَّ الطريقَ الذى يصلون منه الى عفو الله ورحمته لا يزال مسلوكا ، وهذا هو قوله : (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) .

أمرهم بالاستغفار أوَّلا وذلك يكون بتركهم ما هم فيه من الكفر والفسوق ، وبتطهير قلوبهم من الأباطيل والعقائد الفاسدة والرذائل التى وَرِثوها عن أسلافهم ، ثم يتوبون بعد أن يتطهروا من كل ذلك الى الله سبحانه ، ويُنيبون اليه ، ويتقربون بصالح الأعمال الباطنة

والظاهرة التى افتَهم إياها رسولُهم عليه السلام ، وقد سبق لنا الكلام فى التوبة فى العدد الثانى ؛ فارجع اليه متي أردت .

ثم أثبت لهم بقوله : (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) أنهم اذا استغفروا ربهم استغفارا بالعمل لا باللسان ، ثم تابوا اليه التوبة النَّصوح الخالصةَ واتقَوْه حَقَّ تُقَاتِهِ ، فانه يغفر لهم ما أسلفوه ويقبل توبتهم ويرضى عنهم ، فانه جل ثناؤه رحيم بالغ الاحسان والتفضل ، ودود عظيم التودد والمعاملة الحسنى مع من يؤمن به ويطيعه فيما أَمَرَ ونَهَى .

هذا ثم انظر ماذا كان جوابَ قومِه له عليه السلام بعد هذا النصح والانذار والاعذار : (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) .

أنظر كيف تناهى القوم فى القِحَةِ وقَطْعِ مابينهم وبينه من صلة القرابة ، إذ يخاطبهم بقوله لهم (يَا قَوْمِ) ، وهم يخاطبونه بقولهم له (يَا شُعَيْبُ) ، ولو تكلفوا الأدب معه ظاهرا لقالوا (يا أخانا) ، وقد أرشد الله تعالى الى هذه الصلة صلةِ الأخوة التى توجب عليهم التأدبَ معه والايمانَ به عليه السلام فى قوله : (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) ، ولكنهم عادَوْه واستهانوا به و (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مما تَقُولُ) الآيَةَ .

الفقه فَهْمُ غرض المتكلم من كلامه وذلك لا يكون إلا بالاستماع الى المتكلم والإنصاتِ وسلامةِ النفس من عداوتها وكراهتها لمراد المتكلم ؛ فأما اذا لم يستمع اليه أولم ينصت له أو مَرِضت النفس ببغضها الحقّ ؛ فان المخاطب لا يَفْقَه حينئذ غرض المتكلم ، بل لايعرفه أصلا كما فى غير المستمع وغير المنصت ، أو لايعرفه المعرفةَ التى تحفِزُه وتدفعه الى القبول والاذعان كما فى مرض النفوس .

فراد القوم أنهم يقولون لرسولهم عليه السلام : ما نفهم مرادك ، وإنما قالوا هذه المقالة الخاطئة بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه ، وبعد أن

ضاقت عليهم الحيل وأعيتهم العلل ، فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك فى سبيل الغى والضلال ، كما هو ديدن المفحَم المحجوج ، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد ، فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه[1].

والحقيقة أنهم فقهوا كل ما قاله لهم عليه السلام، غاية الأمر أنهم خشوا أن يعيبهم العقلاء بالمكابرة الصريحة الفاضحة اذا قالوا : (ما نفقه ما نقول) ، فلهذا ادّعوا أنهم لم يفقهوا كثيرا من قوله عليه السلام .

استكبر أهل مدين عن الإيمان بالحق ، وأخذتهم العزة بالاثم ، وكَبُرَ عليهم أن يقول لهم رسولهم ما قال ، وأن يكون هو الذى يتولى إصلاحهم ، وأن يحذرهم وينذرهم أن يصيبهم ما أصاب الأممَ السالفةَ من العذاب المحيط .

لذلك أخذوا يزدادون فى الاستطالة عليه وفى تهديده ووعيده ، وذلك قولهم له عليه السلام : (وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) ، أى أننا نعلم أنك فيما بيننا ضعيف لا تقدر أن توصل إلينا منفعة كاصلاح أحوالنا كما زعمت ، كذلك لا تقوى على أن تدفع عنا ضررا ما ، بل لا قِبَلَ لك بنا اذا أردنا أن نبطش بك جزاء لك على دعواك فساد أحوالنا ، وأنك قادر على إصلاحها ، ومكافأةً لك على انذارنا وتهديدنا بما أصاب مَن قبلنا من الأمم الماضية . ولهذا أردفوا ذلك الاستخفاف به عليه السلام بأبشع منه وهو قولهم له : (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) .

الرهط هو العصابة من الناس دون العشرة ، والرجم أن يرمى غيره بالرجم أى الحجارة ، والعزة هى الحالة التى تقى الانسان أن يُغلَبَ أو يُزدَرَى ، فالعزيز هو المكرَّم ، الموقَّر الذى يَقهَر ولا يُقهَر .

(١) أبو السعود .

فرادهم أنهم لم يُبقُوا عليه صلى الله عليه وسلم إلا لوجود رهطه بينهم وبقائه على دينهم وهَجْرِه لسيدنا شعيب ومخالفته وتكذيبه إياه ، فاحتراما له ورعايةً لجانبه ووفاء ببقائه معهم فيما هم فيه كفّوا عنه عليه السلام أيديَهم أن تقتله بالرجم الذى هو شَرُّ قِتلة .

هـذا مرادهم كأنه والله : وقد فعل ، وليس مرادهم أن رهطه عليه السلام قادر على أن يمنعهم ويحول بقوته بينهم وبين رسولهم ، فان أهل مدين ألوف مؤلفة ، ورهطه عليه السلام شرذمة دون العشرة لا يُؤْبَهُ لها وليس لها معهم حول ولا طول .

لم يكتفوا بهذا بل انهم بالغوا فى الاستهانة به بقولهم له : (وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) أى لست أنت نفسك بمكرَّم ولا محترم ولا مُراعَى الجانب حتى نمتنع من رجمك ، وإنما كففنا عنك المحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ، فكأنهم قالوا : (وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا) .

إن أهل مدين ليسوا بِدْعًا من الأمم التى سبقتهم ، فانه ما من أمة إلا أساءت الى رسولها بما استطاعت من التهديد والايذاء وغير ذلك ؛ كما حكى عز وجل عن قوم سيدنا نوح : (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) ؛ وعن قوم سيدنا لوط : (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) ؛ وقال تعالى فى جميع الأمم : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) .

أليس بعجيب أن رسولَ الله شعيبا عليه السلام يذكّر قومه ويحذّرهم أن يفعلوا كما فعل مَن قبلهم فيصيبهم مثلُ ما أصابهم وهم بمرأى ومسمع منهم ، ثم أنهم بعد هذا لا يقيمون لقوله وزنا ، ولا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، ولا يتعظون ، ولا هم يذكرون ، مع علمهم بسوء عاقبة المكذبين ؟ .

بلى إن ذلك لعجيب ؛ فان كل أمة قد قلدت الأمةَ التى قبلها واتّبعت خُطُواتها

ثوابَ الأخيار، ولكن (مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ).

لم يُفِدْهم وعظُه عليه السلام إلا نفورا واستكبارا، ولم يزدهم أسلوبُه الحكيم في النصح إلا إنكارا وإصرارا؛ فلما رأى ثباتهم على كفرهم، ومبالغتهم في الازدراء به، وعزيمتهم على إنفاذ ماهددوه به من الرجم لولا عزة رهطه عليهم؛ كرر وعظه لهم مهددا لهم بسوء العاقبة ووخامة المآل فقال: (وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ).

المكانة هي غاية التمكن من الشيء، يقول لهم عليه السلام: قد ادعيتم أنكم أقوياء قادرون على رجمي والبطش بي، وزعمتم أنني ضعيف فيما بينكم، ليس لي ظهير أستظهر به، ولا نصير أستنصره عليكم، فاثبتوا على ما أنتم فيه من التكذيب والكفر، ودوموا على المشاقة والاستخفاف والوعيد وسائر ما أنتم عليه من أنواع الفسوق والفجور، ثم اعملوا على غاية تمكنكم، وابذلوا نهايةَ اجتهادكم في معاداتي ومضارتي والايقاع بي كيفما شئتم، وفي تدبير ماتسوله لكم أنفسكم، ثم أَخرِجوا ذلك كله من القوة الى الفعل (إِنِّي عَامِلٌ) كذلك على مكانتي كما تعملون، حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييد والتوفيق.

ثم قفّى عليه السلام ذلك التهديدَ بذكر العاقبة وأنها عاقبة سُوءى؛ فبيّن لهم أنهم سوف يعلمون حتما مَنْ سيصيبُه العذابُ المُخزِي المهين؛ وهذا في مقابلة تهديدهم له بالرجم كما ستعرفه.

وصف عليه السلام لهم العذاب بأنه مُخْزٍ مُذِلٌّ لمن سيقع به، تعريضا بما كانوا قد هددوه به من الرجم؛ فان الرجم مع كونه من أشد العذاب وآلمِه فيه خزي شديد ومهانة عظيمة، لأنه لا يعاقب بالرجم إلا في جناية فاحشة وذلك نهاية الخزي والاذلال.

كذلك بين لهم أنهم سوف يعلمون حتما مَنْ هو الكاذب المفتري في دعواه، وهذا

في مقابلة تكذيبهم له عليه السلام، وفي ذلك تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه، وفي نسبته الى الضعف والهوان، وفي ادعائهم أيضا أنهم إنما أَبقَوا عليه ولم يَرْجُموه لرعاية جانب رهطه العزيز المكرَّم عليهم.

ولما كان عليه السلام على ثقة مما وعده الله تعالى به من النجاة والنصر عليهم، ومما أوعدهم به من العذاب المحيط اذا عكفوا على باطلهم؛ ختم وعظه وترغيبه وترهيبه إياهم بقوله: (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ [1]). أي انتظروا مآل مابلغتكم من رسالات ربي إني منتظر كذلك مثلكم، فستعلمون (مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)، و (سَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)؟

عيسى منصور

وكيل دار العلوم العليا سابقا

آثار برج بابل

تمكن الأستاذ «إكارد أونجر» أخيرا من حل رموز أثرية مكتوبة باللغة الأشورية استطاع بواسطتها من معرفة المقاييس المختلفة لبرج بابل الذى لم يعرف عنه حتى الآن سوى طول قاعدته المربعة البالغة ٩٠ مترا، وأصبح الآن من الأمور الثابتة أن هذا البرج العظيم كان مكونا من سبع طبقات ومشيدا على قمته معبد كان يستعمل أحيانا لرصد النجوم أيضا، وكانت قاعدة البرج على شكل هضبة جبلية ذات لون أحمر قاتم، وأما المعبد فكان لونه أزرق؛ وقدّر ارتفاع البرج بما يقرب من ٩٠ مترا.

[مترجمة عن مجلة «Umschau» الألمانية]

(١) فقوله ومن هو كاذب معطوف على من يأتيه. لكن لا على أنه قسيمة ومقابل له بل لأنهم لما وعدوه بالرجم وكذبوه قال لهم سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب.